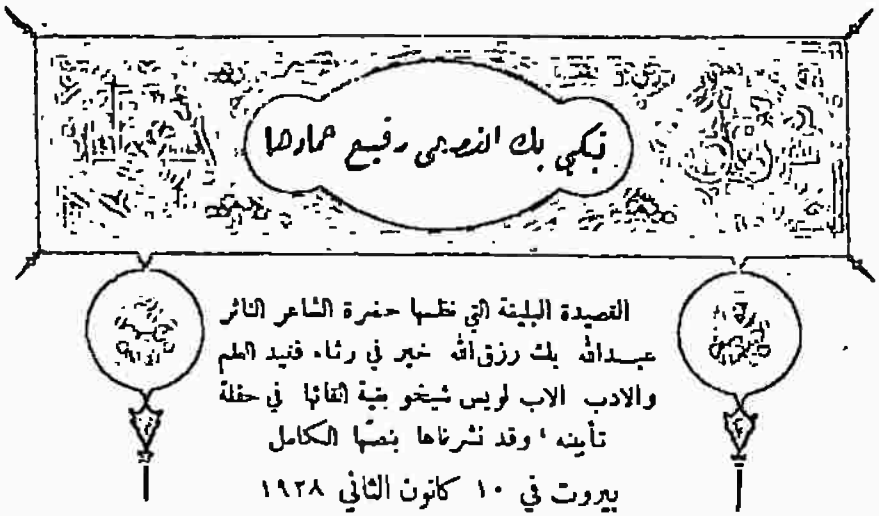

القصيدة البليغة التي نظمها حضرة الشاعر الناثر
عبدالله بك رزق الله خير في رثاء فقيد العلم
والادب الاب لويس شيخو بمئة اتقانها في حفلة
تأبينه ، وقد نشرناها بنصها الكامل

بيروت في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٨

ساق الزمانُ عليَّ جيشَ وبالِ ... وسطا ، فشتّت معظم الآمالِ
وأراش سهمَ النائبات فزّقت ... قلبي الكئيب ، وقطّعت اوصالي
وأمضّني بنوازلٍ وشدائدٍ ... لو لامست رضوى هوى من عالِ
والمفتاه على زمانٍ كنتُ فيـ ... ـهِ اليفَ ايناسٍ ، خليَّ البالِ
اجني بهِ من دانيات قطوفهِ ... ثمر الصفا والخير والاتبالِ
ذكرى اذا ما مرَّ طيفُ هنائها ... بالفكر ، اهتف في شجيّ مقالِ
لله ايام مضت في منعةٍ ... فلقد حوت دعةً وبيض ليالِ
ولّت ، فجرّعني زماني بعدها ... كأس المصائب والشجا القتّالِ
زمنٌ غشوم لا يروم سوى الحشا ... غمداً لسيف خطوبهِ الفصّالِ
زمن تُصيب سهامه ، فمتى رمت ... كبداً تقطعها بغير نصالِ
زمن يضنُّ على الزمانه بحقّهِ ... ويخوّل الجدوى اخا الاذلالِ
زمن يُقيم الظلمَ في احكامه ... ويدوس آي العدل تحت نعالِ
لم يبقَ للأقلام شأنٌ عنده ... والحقُّ بات لأسيفٍ وعوالِ
بل صار طوع زعامةٍ وهميةٍ ... او تحت رحمة ثروةٍ وجمالِ
ما لي أعدّد ضرّه فلقد غدا ... في ضرّه مثلاً من الامثالِ
أتخاله يبغي اتصال كوارثي ... فيديم ناراً في خطوط قتالي
يا دهر ، خفّف من غرورك وأتّئد ... في الجور ، واستهدف لوقع نبالي
فانا أجاهد في سبيل مبادئي ... مهما دهاني من شقا ونكالِ

لا أغمض الطَّرف الابيَّ على قذىً ... ويُقرُّ عيني طيبُ الاقمالِ
لم اخشَ امرًا في الحياة ، ولم ازل ... خوَّاض كلِّ ملمَّةٍ ومجالِ
حتى اظلَّ ، ولو دعا داعي الردى ، ... ثبتاً ثبات الليث يوم نضالِ
لكنَّ عزمي زلزلته فجيعة ... هزَّت شعوب العُرْب كالزلزالِ
قالوا قضى شيخ المعارف والحجى ... شيخو الكبيرُ الخالد الإفضالِ
العالم الفرد الجليل ، العامل الـ ... ـحبرُ النبيلُ ، الباهر الاعمالِ
أستاذيَ الندبُ التقيّ ، الزاهد الـ ... ـورع النقيّ ، الطاهر الأذيالِ
الباحثُ النقَّابة ، العَلَمُ الذي ... احيا بمسعاه الرميمَ البالي
آثاره الغرَّاء ذاعت في الملا ... وغدت له كالمورد السلسالِ
في كل علم كان قطبَ زمانه ... ومجدِّدًا اثر الزمان الخالي
في كل علم كان بحرًا زاخرًا ... يطوي وينشر عنبرًا ولآلي
وجرت يراعته الى اقصى المدى ... سبَّاقةً كالجوهر السيَّالِ
الشرق عزّ « بشرقيٍّ » ، والغرب شا ... طره الفخارَ وواجبَ الاجلالِ
من لي بهِ ابنًا يُعدِّد وصفهُ ... ونفيسَ آثار وحسنَ خصالِ
هذي المدارس والمنابر شاهدٌ ... عدلٌ بفوه بصادق الاقوالِ
ومعارك الاقلام تعرف انهُ ... صِنديدُها المِغوار ، حين جدالِ
بحديثهِ ملك القلوبَ ، ورعظُه ... احيا النفوسَ ، وكان خير مثالِ
ولكم لزمتُ رحابَهُ متعلِّماً ... اروي غليلي من سُلاف زلالِ
ولكم وقفتُ هنا[1] أسير بهديه ... في فنّ تمثيلٍ وبسطة حالِ
واقول قافيةً ، وألقي خطبةً ، ... فلهُ عليَّ فواضلُ المفضالِ
ما راعني يومٌ كيوم وفاتهِ ... فأثار احزاني وبلبل بالي
نكأ الجراح الداميات فشاركت ... بالسيل مجرى مدمعي الهطَّالِ
واحسرتاه على ذكاءٍ زال من ... أفق العلوم وكان وقت زوالِ[2]

١) نادي كلية الآباء اليسوعيين في بيروت حيث كان تقرَّر اقامة حفلة التأبين
٢) وقت الظهر وقد شُبِّه ذكاؤه بذكاء وهي من اسماء الشمس ، اي زال حين كان يُضيء بطلوعه كالشمس وهي في دائرة الزوال

أيموتُ من يُحيي سواه بفضلهِ ... ويعيش كلّ منافقٍ دجّالِ
سبحان باري الخلق في تحديده ... زمن الحياة وساعة الآجالِ
يا راحلاً نوح المعارف بعده ... نوح الصدى ، يوم فقد موالِ
ورنينُها في العالمين كليهما ... يا يُتمَ شملِ فضائلٍ ومعالي
فلقد جزرتَ على السهى ذيل العلى ... وطلعتَ في أفق النهى كهلالِ
وطويتَ اطراف البلاد منقباً ... بعزائمٍ كالمرهفات صقالِ
ونشرتَ للفصحى لواءً عالياً ... في الخافقين كوارفات ظلالِ
أنشأتَ مكتبتين ، واحدةٌ ثوت ... مرصوصةً بدماغك الفعّالِ
وجمعتَ في الاخرى الوف بدائعٍ ... ومفاخرٍ ونفائسٍ وغوالي
وهمتْ سحائبُ علمك السامي على ... اوطاننا ولاننا بنجالِ
وأذبتَ في تعليمنا قلباً معصر ... غاً من وفا ومحبةٍ ونوالِ
وتركتَ من آثارك الغرّاء ما ... يبقى بقاء الدهر للأنسالِ
فأنلتَ اهل الضاد رِفداً خالداً ... حسناتُه كُثُر كحبّ رمالِ
طوّقتَ جيدهمُ بفضلٍ باهرٍ ... وعوارفٍ بالمكرمات ثقالِ
تبكي بك الفصحى رفيع عمادها ... ومُعين نهضتها بغير مللالِ
وتشقُّ غانّ عليك جيوبها ... وتضجّ بالويلات والاهوالِ
هذا فتاها قد تولّاه الاسى ... وردهته صدمة موجه المتوالي
علّمتني نظم القريض فصغتُهُ ... عُربونَ معرفة الجميل الغالي
لو لم أهاجرهُ بقبل الصبا ... لنظمتُ فيك اللؤلؤ المتلالي
لي في القريض سليقة فطرية ... تعنو لها مُستعصياتُ خيالِ
أعرضتُ عنهُ والياسةُ قبلتي ... لأخوض غمر تقلّب الاحوالِ
والشعرُ إمّا عن سرور نظمُهُ ... او عن اسىً يظي كقلب الثالي
فجرت قوافيه يروّضها الشجا ... وعقودهُ نُظمت من الإعوالِ
وتدفّقت كالزاخرات بحورُه ... فاخترتُ « كلها » لوصف كمالِ
سالت حشايَ دماً وعيني ديمةً ... والقلبُ في جزعٍ وفي تشعالِ
فلأندبنّ جليل شخصك في الملا ... وأنوح في الأسحار والآصالِ